قصيدة المفتاح

الياس لحود

ما مِنْ ألمٍ يُشبهني
ما من تعَبٍ بيروتيٍّ يُشبه رُوحي
قال مُحدِّثُنا:
أنسِيتَ المفتاحَ؟
بحثْتُ عن المفتاح الأزرق فيَّ ولم أتعبْ
فتَّشتُ عن المفتاح الضائع فيَّ. فتحتُ يديَّ
نزعتُ الشمعَ عن الرئتين
طرقتُ البابَ دخلتُ: أنا المفتاحُ/أنا المفتاحُ
ـ تفضَّلْ
خذ دوراً ومكاناً فيَّ...
وصافحني ومشينا
هُوَ يحملُ لوزاً وزبيباً
وأنا منبطِحٌ في قدميَّ المسرعتين أُحدِّثهُ بخُلاصة «لا» و «نَعَمْ»
وأراقب تحت وجوه الناس صدى أجوبتي:
«لا و نعم»
دوماً من غير حماسٍ «لا» و «نعم»
[من غير حماس أو معنى أو شبْهةِ مبنى]
[لا ونعم]
ووصلنا بابَ المنْدَبِ قال محدِّثنا: أين المفتاحُ
بحثتُ عن الأبواب وعنّي في المفتاحِ
فلم أجدِ الأبواب ولم أُبصرْني
فتَّشتُ جميعَ يديَّ فلم أُبصرْني
وتفرَّستُ بخطِّ اللَّوز المتقطّعِ قلْتُ
نَسِيتُ هناكَ «أنا»
هل أرجعُ
وأعودُ سريعاً بي؟
فأجابَ محدِّثُنا: دَعْنا منكَ
تعالَ/اتْبَعْني واقطعْ خيطَ اللَّوز الساقطِ فالمفتاح هنا
في هذا الكيسِ المربوطِ بيوتاً

صافحتُ مُعَلِّمَنا ومشينا
أنا أَقْضم لوزاً وزبيباً
وَهْوَ يُراقبني مشدوهاً من ثقْب الشَّمْسِ وينساني مصلوباً في ثقب الحاءِ...

سألتُ ـ أنا وصديقي المُثْقَلُ بالأسماءِ ـ محدِّثَنا
هل هذا البيتُ لجدّي؟
قال: تهجأ بيتَ الشِّعرِ على باب البيتِ
فإن لاحظْتَ بأعلى السَّطر الأيمن باباً أُدخلْ
تجد الأشيا الخرساءَ:
سريراً خشبياً. مكتبةً. سوساً أُفقياً في كُتب الأدراجِ
تمادى حتى الحِبْرِ فخرَّ سعيداً/
إمسح بيتَ الشِّعر على باب البيت فإن شاهدتَ
بأعلى الشطر الأيسرِ ناراً أُخرجْ تجدِ الأشقاءَ العمياءَ:
طريقاً، طاولةً. كرسياً ملقى
(قبواً ـ قفلاً ـ مفتاحاً) إفتحْ وادخلْ في الشطر الأسفلِ
أغلق كلَّ رماد الحربِ وكل خراب الأسماءِ وخذ نَفَساً مَبْحوحاً
واخرج منكَ إلى أجفان اللوزِ/تطلَّعْ من ثقب سراويل

الصيف إلى وجْهكَ

* هل تبصر دبًّا يرقص بالطبْلةِ؟

ـ لا

* هل تبصرمفتاحاً في الدُّبِ؟

ـ نعم

* أُبرم مفتاح مؤخّرةِ الدبِّ

برمْتُ مفاتيح السجنِ. أراكَ

* إذن، أُبرم وجهكَ. ضع نظّارة عينيك ببيت الجلْدِ

وعزّلْ بيتَ الشّعر وأغمض كفّيك: فهمتَ؟ سمعتَ؟

ـ نعم

* أُبرم مفتاحَ الطبلة ثانيةً

هل تسمع شيئاً(مثلاً: أولاد الحارةِ. أصوات الباعةِ

أو تعطيس القنْصِ المتواصلِ)

ـ لا [حتى أنفاس صديقي لا أسمعها]

* هل مات سعيداً

ـ لا أفهمُ

* أعني هل متَّ بخير (أنتَ)

ـ نعم

* لا تنسَ إذنْ أبرم مفتاح مؤخرة الدبِّ

ـ وجدتُ المفتاح/ هنا في دمعة هـذا الرجُـلِ المشدودِ

إلى قلبين

* إذن، إفتح واخرج منك على رَمَق الكلماتِ

أتسمعُ شيئاً مغروماً (مثلاً: زوج المرأةِ. زوج حذائكَ

زوج حمام الزاجلِ)؟

ـ لا

* هل تلمس شيئاً في جوف رمادك تحت الوجه

[تماماً تحت الوجه] تماماً في حَبِّ شبابِ الوجهِ

ـ نعم/ألمُسُني: شفتيَّ. جروحَ يديَّ. بقايا جسدي

[آخر أنفاس مُراهقتي: طاولتي في الصف السادسِ.

كتبي. ورق الكربون. بقايا ممحاتي...]

* خذْ

هذي آخر حبَّةِ لوزٍ (إشربْها معَ بعض الماءْ)

آخرُ حفنةِ شمسٍ وترابٍ

آخرُ أوّلِ مفتاحٍ

افتح عينيك الآنَ

ترى شيئاً. مثلاً: دبًّا يبرمُ مفتاحاً

ـ أُبصر بعضَ حروفِ الشّعر تنادي

تسقط من أسفل عَيْنِ الكلماتِ

أرى تاءً تسقط من:

(تَعَبي)

جيماً تسقط من:

(جسدي)

واواً نوناً من:

(وطني)

وهنا غصّةُ كلِّ حروفي:

تعَبي ـ جسَدي ـ وطني

(أو أيُّ كلام آخرْ)

أرى ياءً تسقط من آخر كل الكلماتْ

تعبٌ. جسدٌ وطنٌ

* أين الياءُ؟

ـ الياءُ طعامُ نساءِ الحربِ.. شرابُ البُومِ إلى ما شاءَ اللهُ

وغصَّ مرافقنا بالدمعِ

وقال محدِّثُنا لا بأسَ. أعيدوا الدرسَ ورائي:

ـ تعبي

أصوات: تعبي

ـ تعبي يردُمني في الياء

أصوات: تعبٌ

ـ جسدي

أصوات: جسدي

ـ جسدي يُلغيني

أرأيتم هذا النَفَسَ المشدودَ إلى خيطَيْنِ من الشّعر

المحروقِ؟

أصوات: نعم. (في أعلى اللوح الحجريِّ)

ـ تماماً بين الخشْبةِ واللّونِ الأسودِ.

تحت الممحاةِ المذعورةِ (أعني خيط الممحاة)

أصوات: نعم

ـ وطني

أصوات: وطني

ـ (اسحب من تحتك ياءَ المتكلّمِ يا متكلِّمُ)
كيف ترى؟
أصوات: وطنٌ ممحوٌّ في اللوحِ الأسودِ
ـ لا، خذْ هذا المفتاح المكسورَ وحاول أن تكتبَ
في خشَبِ اللوحِ بهذا النَفَسِ المُلغى
«تعبٌ. جسَدٌ: وطنٌ»
واهتـزَّ معلِّمُنـا في جَـرَسِ الصفِّ وقـال: الآن انصرفوا

وعدَوْنا بموازاة الأيام/مشينا بموازاة النهر
وحين خلَوْنا تحت الصفصافِ
طعنتُ (أنا ونُهى وسهى) في النحر محدِّثَنا
ورمينا جثَّته في البحر وطرنا
نمشي عبر الحَوْرِ وفي أعلى الرمّان وتوتِ الحقلِ
نهى بفمٍ وسهى بفمٍ
وأنا بين الثغريْن لهيبٌ عسَليٌّ. أمسكتُ المفتاحَ
فتحتُ قميصي تحت العُنْقِ هتفتُ أنا يا ناس قتلتُ محدِّثنا
صاحتْ في العتمِ نهى: لا. لا
أنتَ قتلتَ «أنا»
صاحتْ أوجاع سهى: لا. لا
أنتِ قتلتِ أنا

وغمرتُ نهى وسهى وعدَوْنا. طِرْنا فوق الحَوْر
لمسنا أثمار التفاح عرفْنا
قال محدِّثنا: بل كيف نحرتم تعَبي
قلنا أنتَ رضيتَ فدَعْنا
ورمينا جثَّته في البرّ وعُدنا
قالت بيروتُ لنا
هيّا نختبىء الآن بهذا الشرق المقتولِ
تعرَّينا بالعتم طلعنا حتى الثلجِ على أضلعنا

غناء:

«نحنُ عُراةُ الفجرِ ـ أزيحونا
إنْ كنتم تمتلكون غراماً أقوى
نحن عراةُ اللحم المرهفِ ـ

فكّوا أضلعنا عن كرة الشمسِ»
وصاح مرافقنا كفّوا عن هذا الهَذْرِ ـ وصلْنا
وبلمحة عينٍ أنزلْنا كلَّ حقائبنا
واجتزنا شجَرَ التفاحِ صعِدنا درَجَ المصطبةِ الصارخِ
أعني ورق الكرمة والزيتونِ
غمرنا أطيابَ الورْدِ الجوريِّ وقبّلْنا أحجار البابِ
صرخنا: مَنْ معه المفتاحُ
أجاب البيتُ أنا المفتاحُ. فتحنا ودخلْنا
«ها نحن اليوم أمام سواحلكم
ومدائنكم يا إخوتنا في جوف خريطتنا»
هل يأذنُ لي (أعني ولنا) ملكُ البطّيخِ
بأن أدخل رأسَ البطيخ الدائخَ هذا
أعني رأس الكرة الأرضيَّةِ (أعني رأسي)
ـ «كفّوا عن هذا الهذرِ وصلنا/كفّوا «عن هذا الهذر وصلنا...»
واهتزّ معلّمُنا وتهاوى
وتداعينا تحت اللوز نصبُّ الماءَ عليه فلا يسمعْ
وصعِدنا كَرَزاتِ الكرْم. بقايا جُثَثِ التينِ. شَوَتنا رائحةُ الطيّونِ
صعدنا/قبّلنا أحجار الدرْبِ. أضَعْنا كلَّ بيوتِ البلْدةِ
أشلاءَ الأبواب وأشباهَ الألوان صرخنا
مَنْ معه المفتاحُ؟
أجاب ترابٌ تحت الصخرِ: أنا المفتاحُ
أجاب ترابٌ تحت القبر: أنا المفتاحُ
أجاب دخان الأرض: صدقتم
وفتحنا ودخلنا
ها نحن الآن وراء قصائدكم، في ذيل خريطتنا المشويّة قرب الميتمِ
فوق رماد البيت تماماً. هل ندخل؟ هل يُعفينا ملك الإسفنج الأسود من رسم «الكوتا» الوطنيِّ لندخل هذا البيتَ الشعريَّ المهدوم
الأصوات: هل نخرج
هل نخرج
من خرم جدار الموتى؟؟